# الآثار السياسية لعلماء الحديث
# في دمشق خلال عهد المماليك القرن 08هـ/14م

أ.زلماط إلياس، جامعة تيارت

**مقدمة:**

إن أهم ما ميز علماء الحديث في دمشق خلال القرن 08هـ/14م انزواؤهم في المساجد والمدارس ودور العلم، وإنكبابهم على التعليم والتأليف، فساهموا في دفع الحركة العلمية في دمشق وهذا ما لا ينكره أحد، ومما لا يخفى على المتتبع للحركة العلمية وسيرها في العالم الإسلامي، أن مصر وبلاد الشام قد ازدهرت فيها الحياة العلمية في تلك الفترة، وأصبحت مقصداً للكثير من طلاب العلم، حيث كان لعلماء الحديث دور كبير في المجتمع . ولعل ما يبدو للمدقق في التاريخ المملوكي أن تأثير العلماء تعدى الناحية العلمية و المذهبية، ليصل إلى نواحي عديدة ومجالات مختلفة في المجتمع الدمشقي، ونقتصر في دراستنا هذه على الناحية السياسية. فهل كانت هناك مساهمة حقيقية لعلماء الحديث من الناحية السياسية في دمشق ؟ وكيف تجلت مظاهرها؟ وهل كان حقا سلطان المماليك مهددا بحيث يتوجس خيفة من العلماء؟ وللإجابة عن ذلك نرى من المناسب أن نعطي قبل ذلك لمحة عن الأوضاع العامة لمدينة دمشق.

**أولا: الأوضاع العامة لمدينة دمشق خلال القرن 8هـ/14م** سنتحدث عن الأوضاع السياسية ثم نتبعها بالأوضاع الاجتماعية لتكتمل لدينا الصورة العامة للمجتمع وما الذي يؤثر فيه ويتأثر به، ثم نتطرق إلى تأثير العلماء في الناحية السياسية.

## الأوضاع السياسية في مدينة دمشق خلال القرن 8هـ/14م:

تميزت بداية القرن الثامن الهجري بالفوضى، والاضطرابات السياسية الداخلية، وقد استغل العدو الخارجي فرصة الفوضى القائمة في الدولة، فوجه المغول حملتهم العسكرية ليسيطروا فيها على دمشق، فقاموا بتخريبها وسلب ونهب خيراتها، وسبي نسائها وذراريها.[1]

وفي عهد سلطنة الناصر محمد بن قلاوون[2]، استطاع استرجاع دمشق، وعاشت في النصف الأول من القرن 8هـ/14م أجمل أيامها. فقد أمنت من التتار بعد هزيمتهم في معركة شحقب 702هـ/1303 [3]. واعتبرت فترة حكمه أحسن فترات الدولة المملوكية، فقد استتب له الأمن، وسكنت له الأوضاع[4].

ثم تأتي بعد ذلك الفترة الممتدة من نهاية حكم السلطان الناصر محمد 741هـ/1340م، إلى سقوط دولة المماليك البحرية سنة 784هـ/1382م، تميزت بالفساد في الحكم، فقد حكم خلال هذه الفترة البالغة ثلاثة وأربعين عاما اثنا عشر سلطانا، ثمانية من أولاد الناصر محمد في العشرين عاما الأولى بعد وفاته، وأربعة، من أحفاده خلال عقدين كاملين، أي بمعدل ثلاث سنوات ونصف لحكم السلطان الواحد[5]. وكانت هذه الفترة سلسلة حوادث بؤس وشقاء إذ لم يكن أحد منهم على مستوى يؤهله لأن يمارس صلاحياته إلا بواسطة أمراء نافذين، كانوا مثالا للجشع والفساد، فقد حرموا السلاطين من مزاولة صلاحياتهم في الحكم وذلك بفعل صغر سنهم، وجهلهم بالأمور السياسية، وكان أضعفهم إدارة أكثرهم قبولا لدى الأمراء فإذا بدأ يعارض رغباتهم بادروا إلى عزله أو قتله أحيانا.

ازداد نفوذ طائفة المماليك البرجية[6] ازديادا مضطردا فاستطاع أفرادها كسب الجولة الأخيرة من الصراع، وأسسوا دولة مملوكية ثانية على أنقاض الدولة المملوكية الأولى، وقد قاد هذا الانقلاب السلطان الظاهر سيف الدين برقوق 784-790هـ/1382-1388م[7]، واعتلى سدة حكم الدولة الجديدة، إلا أنه واجهته فتن وثورات داخلية من طرف المماليك مافتئت تنتهي، حتى تعرض لعدوان خارجي من طرف المغول للمرة الثانية في أوائل القرن التاسع هجري، عندما ظهر القائد المغولي تيمورلنك الذي دخل دمشق واستباحها وأحرقها[8].

## 2- الأوضاع الاجتماعية في دمشق خلال القرن 8هـ/14م:

كي نعرف الأوضاع الاجتماعية لابد من معرفة الطبقات المكونة لهذا المجتمع، فقد سكنت مدينة دمشق عناصر مختلفة من السكان ينتمون إلى أصول عديدة, فمنهم الأتراك والأكراد والروم والفرس والعرب، وعناصر أخرى، وكان العرب هم أغلب العناصر في المجتمع، سواء في داخلها أو في مناطق أخرى من بلاد الشام.

أما فئات المجتمع الدمشقي، فأعلاها فئة المماليك فهي الفئة الراقية التي بيدها السلطة فمنهم النواب، والأمراء، والجند، جلبوا في بادئ الأمر صغارا، وأقاموا في أماكن خاصة بهم تسمى الطباق[9]، وقد تدربوا على صنوف الحرب والقتال كما تعلموا القرآن الكريم واللغة العربية وتعاليم الدين الإسلامي[10]، كما تميزوا بالانعزال عن الشعب، واستأثروا بالإقطاعات الواسعة وحازوا على أموال طائلة.[11]

أما الفئة الثانية فهي فئة العلماء، والفقهاء وأهل العلم عامة؛ وتشمل هذه الفئة أرباب الأقلام، وأصحاب وظائف الديوان، والفقهاء والعلماء والأدباء، والكتاب، وأهل التصوف، وطلاب العلم، وقد نالت هذه الفئة دعما خاصا لدى سلاطين المماليك، ولعل شعورهم بالغربة هو سر استعانتهم بالفقهاء والعلماء لتثبيت حكمهم[12]. أما الفئة الثالثة فهي فئة التجار والحرفيين الذين كانوا يعيشون حياة متحضرة، تتوافر لديهم كل مظاهر الراحة والاستقرار[13]، كما أن المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية كانت تقوم على خدمتهم، كالبيمرستانات[14]، والحمامات[15] والمدارس، والأسواق العامرة بصنوف السلع المختلفة، وقد تميزت أسواق دمشق بتخصصها، فكان كل سوق يختص بسلعة معينة[16].

أما الفئة الأخيرة فهي فئة الفلاحين، وهم سكان القرى المحيطة بدمشق الذين عانوا من ظلم المماليك والإقطاعيين لهم، فكانوا يلزمون بفلاحة الأرض، ولا يسمح لهم بالنزوح منها إلا بعد ثلاث سنوات من بعد بداية العمل لدى صاحب الإقطاع، وإن نزح أو هرب يعاد إلى الأرض بالقوة، ويلزم بفلاحتها[17]. وقد بلغت قسوتهم، وتعسفهم بالفلاحين أنهم أقدموا على الاعتداء على أعراضهم وممتلكاتهم[18] وأرهقوهم بدفع الضرائب التي لاقوا منها العنت، كما كان لنزول الجذب والقحط والجفاف دور كبير في نقص السلع وغلاء الأسعار، ولعل أشد ما رأته البلاد الطاعون[19] الذي حل بدمشق في سنوات عديدة نذكر منها سنة749هـ/1350م وسمي بالطاعون الأعظم لكثرة موت الناس فيه[20].

وعموما كانت الحياة السياسية والاجتماعية في القرن 8هـ/14م مضطربة في غالبها كما سلف ذكره إلا أن الحالة العلمية كانت مشرفة إلى حد كبير، ومما لاشك فيه أن للعلماء الدور الكبير والأثر البالغ في أي مجتمع، إذ هم سراج الأمة فهم الهادين إلى سواء السبيل، ومن هذا المنطلق

فقد كان لعلماء أهل الحديث في دمشق –خلال حقبة الدراسة– مشاركة في أغلب مناحي الحياة، وسنحاول بسط الكلام حول مشاركتهم في الحياة السياسية.

**ثانيا: مظاهر تأثير أهل الحديث في الحياة السياسية في دمشق خلال القرن 8هـ/14:**

وسنفصل في هذا المبحث كالآتي:

**1– مشاركة أهل الحديث في الجهاد[21]:**

لما كان حضور العدو بلدا من بلدان المسلمين تعين على أهل البلاد قتاله وطرده منها ووجب على المسلمين أن ينصروا ذلك البلد إذا عجز أهله عن إخراج العدو، وتجدر الإشارة هنا إلى أن للجهاد مكانة عظيمة في قلوب المسلمين ولا أدل على ذلك من قول الله تعالى: "انفروا خفافا و ثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون[22]". والآيات الدالة على الجهاد بالمال والنفس كثيرة منها قول الله تعالى : "يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل"[23].

أما الأدلة من السنة على ذلك فكثيرة منها أنه ثبت عن حديث أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "جاهدوا المشركين بألسنتكم وأنفسكم وأموالكم وأيديكم"[24]وفي حديث آخر عن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد".[25]

وعموما إن الجهاد أحد ركائز الدين، لما له من أجر كبير في ظل الأدلة من الكتاب والسنة الدالة على وجوبه إذا توفرت فيه شروطه وذلك بغزو العدو لأحد بلدان المسلمين كما حدث بدمشق بداية القرن 8هـ/14م وذلك بغزو التتار لها، ومن هذا المنطلق فقد كان لأهل الحديث إقبال كبير عليه ومن أمثلتهم الشيخ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني728هـ 1328م[26] الذي شارك في الجهاد ضد التتار[27] ولعب دورا سياسيا هاما فقال عن ذلك ابن كثير لما بلغ السلطان الناصر قدوم التتار إلى الشام فتهيأ لذلك وجاء ودخل الشام[28], ثم وقعت واقعة الخازندار بين

السلطان وملك التتار غازان[29] وقتل جماعة من الأمراء وغيرهم ومن العوام خلق كثير[30] ورجعت العساكر على أعقابهم إلى الديار المصرية، قال ابن كثير: "ورجع السلطان في طائفة من الجيش على ناحية بعلبك، وأبواب دمشق مغلقة والقلعة محصنة وسلطان التتار قصد دمشق بعد الواقعة"[31] فاجتمع أعيان البلد وكان معهم شيخ الإسلام ابن تيمية، فقرروا المسير إلى غازان لتلقيه وأخذ الأمان منه لأهل دمشق، فتوجهوا إليه واجتمعوا به عند النبك[32] قال ابن كثير: "فكلمه ابن تيمية كلاما شديدا نفع الله به المسلمين".[33]

ومما سبق نستنتج دور أهل الحديث السياسي في هذه الفترة العصيبة خاصة مع الغياب التام للسلطة الحاكمة وقد برز دور شيخ الإسلام أيضا في الحظ على الجهاد والتحريض عليه والمبالغة في ذكر أجور المجاهدين وتثبيت العساكر والقادة ووعدهم بالنصر، فمن ذلك أن بعض الأمراء رأى أن تسليم قلعة دمشق للتتار حماية للسكان، فوقف ابن تيمية أمامهم وطلب من صاحب القلعة عدم تسليمها لو لم يبقى فيها حجر واحد.[34]

ومن بين نماذج جهاد الشيخ أيضا: قتاله لآهل الجبل الكسروانيين[35] من أبناء الفرق الباطنية، فقد ذكر ابن كثير في أحداث سنة 699هـ/1300م أي بعد خروج المغول من دمشق فقال: "ركب نائب السلطنة جمال الدين الأفرم في جيش دمشق إلى جبال الجرد وكسروان، وخرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية مع خلق كثير من المتطوعة والحوارنة، لقتال أهل تلك الناحية بسبب فساد دينهم وعقائدهم، وكفرهم وضلالهم"[36] ومنه كذلك لأنهم عاملوا فلول عساكر المسلمين الفارين بعد معركة الخازندار إلى هذه الناحية بأمور منكرة، فنهبوهم وأخذوا أسلحتهم وخيولهم، وقتلوا الكثير منهم.[37]

ولما ظهر جيش الدولة المملوكية على القوم، برز دور شيخ الإسلام السياسي من خلال عقده الصلح معهم وكذلك في فرض شروطهم عليهم، ويقول عن ذلك ابن كثير: "وجاء رؤساءهم إلى الشيخ تقي الدين ابن تيمية، فاستتابهم...والتزموا برد ما كانوا أخذوه من أموال الجيش، وقرر عليهم أموالا كثيرة يحملونها إلى بيت المال وأقطع أراضيهم وضياعهم"[38].

كما لعب أهل الحديث دورا هاما في حماية دمشق، فمن ذلك أن نائب السلطنة أمر عامة الناس بتعلم الرماية، قال ابن كثير: "وصدرت الأوامر أن تعلق الناس أسلحتهم بالدكاكين وأن

يتعلموا الرمي فبنيت الإبجات– معسكرات – في دمشق وأمر الفقهاء بأن يتعلموا الرمي استعدادا لأي طارئ "[39] وهكذا يجب أن تستعد الأمة في أوقات الرخاء حتى إذا نزلت الشدائد انبرى من أبنائها من يدافع عنها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مثل هذه الأوامر تكررت في نهاية القرن 8هـ14م عند كما لعب أهل الحديث دورا هاما في حماية دمشق، فمن ذلك أن نائب السلطنة أمر عامة الناس بتعلم الرماية، قال مداهمة تيمورلنك[40] دمشق فقد فتح القضاة المساجد والمدارس 799هـ/1400م للتدريبات العسكرية فكانوا يأمرون الناس تعلم الرماية، وفنون الحرب وذلك للدفاع عن عقيدتهم ومدينتهم[41]، أيضا من بين مظاهر بروز علماء أهل الحديث كقادة سياسيين محاولات الصلح التي قام بها الشيخ إبراهيم بن مفلح الصالحي الحنبلي 749-803هـ/1348-1404م[42]، عند مداهمة تيمورلنك وذكر ذلك ابن حجر بقوله: "ولما طرق اللنك الشام كان ممن تأخر بدمشق فخرج إلى اللنك وسعى في الصلح و تشبه بابن تيمية مع غازان".[43]

## 2- التأثير السياسي لأهل الحديث على السلاطين خلال القرن 8هـ/14م:

لقد كان لأهل الحديث في دمشق خلال فترة الدراسة مركزا مرموقا، حيث كانوا همزة وصل بين الشعب وسلاطين المماليك –الأجانب- وقد استعان المماليك بهم ويبدوا أن سبب ذلك، حاجتهم إلى دعائم يستندون إليها في إضفاء صفة الشرعية على حكمهم[44]، ولا غرو في أن العلماء كانوا أسرع وسيلة إلى اكتساب قلوب سائر الفئات الاجتماعية، ويمكن حصر تأثير مواقف أهل الحديث على السلاطين في النقاط التالية:

**أولها:** إضفاء كثير من العلماء صفة الشرعية على حكم المماليك، وكانوا يمثلون أسرع الطبقات اعترافا بالسلاطين الجدد أو المعينين، ويبدوا أن الدافع من ذلك الخوف من وقوع الفتن والاضطرابات[45] ونمثل على ذلك بوفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة741هـ/1341م حيث بويع ابنه أبو بكر بالسلطنة في نفس اليوم، وأرسلت سفارة إلى الشام لتعزية النواب بوفاة السلطان الناصر، وأخذ البيعة لابنه وقد قال المقريزي: "وعين الأمير قطلوبغا الفخري لتعزية نواب الشام بالسلطان الناصر محمد، والبشارة بسلطنة ابنه وتحليفهم ويكون صحبته تقاليدهم"[46] وقد

جرت العادة أن تقرأ هذه المراسيم السلطانية، في دور العلم كالمساجد، والمدارس وتأخذ البيعة من العلماء أولا، كما جرت العادة أيضا أن يدعى على المنابر في صلاة الجمعة للسلطان الجديد، وهذا السلوك يمثل معنى سياسي هام في الطاعة والولاء.

**الثاني:** حرص بعض الثائرين على استمالة العلماء إذا أرادوا إنجاح ثوراتهم. مثلما فعل ذلك الأمير منطاش في أثناء صراعه مع خصومه المماليك[47]فقد وافق القاضي برهان الدين أحمد منطاش على ذلك[48], وهنا يبرز تأثير العلماء على قبول العامة بالحكام الجدد، فهو بمثابة دعم سياسي لهم.

**الثالث:** هو أن المماليك لم يكن باستطاعتهم فرض ضريبة إضافية على الشعب أو كبار التجار إلا بموافقة العلماء، وذلك لدفع عدو، أو مواجهة مجاعة، أو طاعون وهنا يبرز دور العلماء السياسي في قيادة الجماهير، ويظهر أثرهم في رد فعل العامة بالإسراع إلى تلبية حاجات الدولة، كما رفض بعض العلماء مثل هذه الضريبة في أوقات معينة مثلما فعل الشيخ أمين الدين[49] حين قال: "لا يحل للسلطان أن يأخذ مال أحد إلا بالحق حتى ينفذ ما بأيدي الأمراء، والجند من الأموال والمتاع والأقمشة مما لا يحتاج إليه في الحرب"[50]. وهذا يدل على أن العالم يتمتع بقدر كبير من الشجاعة وحرية الرأي، و لم يُذعن لرأي السلطان وكان بوسعه لو رفض السلطان رأيه، أو تصرف بحقه تصرفا سيئا أن يوضح ذلك لجموع الشعب في المدرسة أو المسجد، وينتشر الأمر بين العامة، فيؤدي إلى انتفاضة شعبية ضد السلطان، ولذا كان السلاطين في معظم تلك الأحوال يكتفون بالسكون مرغمين، لأنهم يعلمون نتيجة اعتراضهم على العلماء والاعتداء عليهم.

ومن هذا أيضا ما ذكره صلاح الدين الصفدي[51] عن شيخ الإسلام ابن تيمية حين ذهب إلى قطلوبك[52] الكبير لرد بعض مظالم الناس، وكان الأمير في جبروت على أخذ أموال الناس و اغتصابها. فقال الصفدي: "فقام يمشي إليه، فلما دخل إليه وتكلم معه في ذلك قال له قطلوبك" أنا الذي أريد أن أجيء إليك، لأنك رجل عالم زاهد. يعرض بقوله: "إذا كان الأمير بباب الفقير فنعم الأمير ونعم الفقير، وإذا رأيت الفقير بباب الأمير فبأس الأمير و بأس الفقير".[53] فرد عليه شيخ الإسلام قائلا: "قطلوبك، لا تعمل علي دركواناتك[54]، موسى كان خيراً مني وفرعون كان شرا منك وكان موسى كل يوم يجيء إلى باب فرعون مرات كل يوم ويعرض عليه الإيمان"[55].

ومن مظاهر قوة العلماء أيضا ما فعله شمس الدين الركراكي المالكي، الذي رفض الموافقة على الفتوى التي وقعها العلماء بقتل السلطان الظاهر برقوق بتهمة الاستعانة بالكفرة على المسلمين، فضربه الأتابكي منطاش مائة عصا وسجنه بالإسطبل[56]، وتحمل العقوبة وثبت على رأيه سنة 791هـ/1392م.

وفي المقابل كان للأمراء دور كبير في الانتقام لأنفسهم من العلماء كما ذكرنا, ونشير هنا إلى أن ابن تيمية قد سُجن من طرف السلطان بيبرس الجاشنكير[57]، وذلك على خلفية سياسية، حيث أن ابن تيمية أنكر عليه اغتصابه الحكم من السلطان الشرعي محمد بن قلاوون[58], فاستدعي من طرف أحد أعوانه الحاقدين على الشيخ بقرار سلطاني، وحوكم محاكمة صورية في جلسة لم تدم مدتها إلا دقائق ثم سجن[59] حسب ما ذكره ابن كثير.

أيضا من بين مظاهر القوة السياسية التي تميز بها علماء أهل الحديث، حلولهم كمفاوضين في أثناء غياب السلطة الحاكمة أو فرارها، كما جرى ذلك نهاية القرن 8هـ/14م، فقد فوجئ سكان المدينة برحيل السلطان والأمراء، ونائب دمشق صباح يوم الجمعة الحادي عشر من جمادى الأولى سنة 803هـ/1404م، فأسرعوا بإغلاق أبواب المدينة، وركبوا أسوارها ونادوا بالجهاد...وكان تيمورلنك يتوقع أن تستسلم له المدينة خاصة بعد أن تركها المماليك، ولكن الدمشقيون قاتلوه أشد القتال، واستولى أهل المدينة على عدد كبير من الخيول مع بعض الذخائر حسب ما ذكره ابن تغري بردي[60].

لما استعصت المدينة على تيمور استعمل الحيلة في دخولها فأرسل رجلين فصاحا من تحت الصور: "الأمير يريد الصلح، فابعثوا رجلا عاقلا حتى يحدثه الأمير بذلك[61] فاجتمع من أعيان دمشق وعلماء الحديث قاضي القضاة محي الدين محمد بن العز الحنفي، وولده القاضي شهاب الدين، وقاضي القضاة تقي الدين إبراهيم بن مفلح الحنبلي[62]، وقاضي القضاة شمس الدين محمد الحنبلي النابلسي[63]، وعبد الرحمن بن خلدون[64] قاضي قضاة المالكية بمصر، وكان قد حضر مع السلطان فرج، ولم يتمكن من الرحيل معه فعاش أحداث المدينة ووقائعها واجتمع هؤلاء الأعيان للنظر في أمر الصلح، وبعد عدة مشاورات قرروا الذهاب إلى تيمور، وإجراء مفاوضات الصلح معه وتسليم المدينة، وبهذا القرار أصبح أهل دمشق مسؤولون عن مصير مدينتهم.

ولما تم أخذ هذا القرار بالموافقة على الصلح، وقع اختيار أهل الحل والعقد على القاضي تقي الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح، ليكون رئيسا للوفد، فاجتمع مع تيمور الذي خدعه في اللقاء الأول فقال له بهدوء وحسن الكلام: "هذه بلدة الأنبياء و الصحابة، وقد أعتقتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة عني وعن أولادي، ولولا حنقي على سودون نائب دمشق عن قتله لرسولي، ما أتيتها، وقد صار سودون في قبضتي ومن أسراي، و لم يبق لي غرض إلا الرجوع، ولكن لا بد من أخذ عائداتي من الطقزات[65]" .[66]

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن خلدون صور أخبار هذه المقابلة من وجهة نظره، محاولا في هذا التصوير أن يبرز لنفسه دورا هاما، مع أنه لم يكن إلا مجرد ضيف على المدينة، وليس من أهلها، موضحا أنه كان الوحيد المكلف من أعضاء الوفد بالحديث وليس ابن مفلح[67] لكننا نشك في قيام ابن خلدون بهذا الدور ليس تقليلا لمكانته ورجاحة عقله وذكائه، وإنما لأن بن مفلح كان رئيسا للوفد[68] كما ذكرت المصادر التاريخية التي أشرنا إليها، فابن مفلح هو صاحب الحق الأول في إدارة المفاوضات لأنه من أهل هذه المدينة، بالإضافة إلى إجادته اللغة الفارسية التي يحسنها تيمور، وبرجوع ابن مفلح اختلف الناس في الصلح أم الحرب, واستقر الأمر على إتمام الصلح وموافقة ابن مفلح القاضي الحنبلي على رأيه.

ولما علم بذلك تيمور، قدم رسول من عنده لطلب الطقزات المتفق عليها، فاستدعى ابن المفلح القضاة والفقهاء والأعيان والتجار وجمع لتيمورلنك ما طلبه، وساروا به إلى باب النصر ليحملوه إلى تيمور، فمنعهم نائب القلعة وهددهم بحرق المدينة إن فعلوا ذلك، ولكنهم أهملوا نصيحته وقالو له: "أنت تحكم على قلعتك ونحن نحكم على بلدنا"[69] ثم جاء فرمان الملك التتار بالأمان، ثم دخل تيمور بجيشه وأظهر لهم الود في البداية وصلى الجمعة بجامع دمشق، وبدأت البدايات الأولى لنقض العهود فبدأ بالإساءة إلى الوفد المفاوض، وفرضوا على الناس تسديد عشرة ألاف ألف دينار على وجه السرعة، وحصل التتار على كثير من الأموال والأوقاف حتى وقع للناس بلاء عظيم وعوقب كثير من الناس بالضرب المبرح[70] واستطاع تيمور بعد ذلك أن يقبض بيده على زمام المدينة ويعمل في أهلها السيف، وفي منشآتها الحضارية النار، وظلت المدينة ثمانين يوما مستباحة للجنود حتى فر كثير من أهلها[71].

**الرابع**: أنهم قاموا بدور سلمي في حل المنازعات والخصومات بين الأمراء أثناء الحروب الأهلية في دمشق سنة 791هـ/1390م, وتحقيق المصالحة السياسية بينهم فكان العلماء والفقهاء يتدخلون لإنهاء القتال، وإقناع المتمردين والمتآمرين على قبول الصلح خاصة عندما تحيق الأخطار الخارجية بالدولة[72].

**الخامس**: قيام أهل الحديث بإرسال رسائل إلى الملوك المعاصرين لهم، بحيث أن إرسال الرسائل والحث على الجهاد وحماية المسلمين، نوع من الجهاد وهو الجهاد باللسان ونذكر بعضا من أهل الحديث من مارس هذا النوع من الجهاد نذكر منهم الحافظ ابن كثير حينما أرسل رسالة عند محاصرة قلعة إياس إلى الأمير منجك فحث المؤمنين فيها على الصبر، والجهاد في رسالة سماها: الاجتهاد في طالب الجهاد[73]. وأيضا أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني من خلال رسائله إلى ملوك عصره، والذي نلمس منه الدور السياسي لهذا الشيخ.

**السادس**: معارضة أهل الحديث محاولات سلاطين المماليك وأمرائهم إبطال الأوقاف والاستيلاء عليها، من ذلك ما ذكره ابن حجر عن القاضي الحنفي سراج الدين الهندي[74] فكان شديدا عندما تناقش مع الأمير آلجاي اليوسفي[75]، عن أحد نظار الوقف الذي استكثر معلوم التدريس للشيخ وما يأخذه من مرتبات أحد الأوقاف فقال له سراج الدين: "إقطاعك أيها الأمير مبلغ ألفي ألف درهم وتستكثر هذا المعلوم للتدريس "فقال الأمير: "أنا آخذ الإقطاع لحفظ بلاد المسلمين" فقال: "ومن علمكم الجهاد إلا الفقهاء" فسكت[76] هكذا كانت عزة العلماء أهل الحديث في الرد على الأمراء وإحقاق الحق.

## 3- مركز المماليك مهدد أمام دور العلماء السياسي في القرن8هـ/14م:

في كثير من الأحيان خاف المماليك على سلطانهم من علماء الحديث وذلك يعود إلى عهد العز بن عبد السلام[77] -سلطان العلماء- يحكى عنه أنه كان يرفض شهادة بعض الأمراء المماليك وقد ذكر الذهبي واقعة جرت له مع أحدهم فقال: "وقعت له واقعة مع الأمير حسام الدين بن علي شهادة تتعلق بالسلطان، فجاءه لأدائها فبرز يقول: لا للسلطان، هذا ما أقبل شهادته"[78] وذلك لأنه كان ناقص العدالة فرفض شهادته.

ومن مظاهر التأثير السياسي لهذا العالم، خوف المماليك منه على سلطانهم، ويروي المؤرخون أن الظاهر بيبرس[79] كان يرهب الشيخ حتى إنه قال لما مات الشيخ: لم يستقر ملكي إلا الساعة، لأنه لو أمر الناس في بما أراد لبادروا إلى امتثال أمره[80]، كما يروى أن النووي كان جريئا على السلطان لايخشى في الحق بطشه، فكان ينصحه ويؤنّبه. وروي أن الظاهر خرج لقتال التتار، فاستفتى العلماء لأخذ أموال الرعية لقتالهم فأقره العلماء ماعدا النووي، فإنه أغلظ عليه القول[81].

هذا ولا ننسى دور السياسي لعلماء الحديث خلال القرن 8هـ/14م، ونستدل على ذلك ما جاء عن ابن تيمية عند مداهمة التتار دمشق للمرة الثانية سنة 700هـ/1299م جلس ابن تيمية في مجلسه في الجامع، في الثاني من صفر وحرض المؤمنين على القتال وبذل الأموال، ونهاهم عن الفرار[82] ثم أتجه بن تيمية إلى نائب الشام وجيشه فثبتهم وطيب قلوبهم ووعدهم بالنصر وبات عندهم ليلة وعاد إلى دمشق[83]. كن الناس وسكنت الأوضاع، ثم لما جاءت الأخبار برجوع الناصر محمد وجيشه إلى مصر، ركب الشيخ حتى وصل إلى السلطان وطالب منه النصرة قال ابن كثير: "وخوفه بالله وهدده بأنه إذا تأخر فإن أهل دمشق سيجعلون عليهم سلطانا غيره يدافع عنهم"[84]. فأثر ذلك الموقف السياسي في السلطان فاستجاب لأمر العالم.

أما الثاني: ادعاء بعض الحاقدين على بن تيمية انه يُخشى على الدولة منه. من أمثال القاضي المالكي علي ابن مخلوف 718هـ/1318م حين كان يقول للأمراء: "إن هذا يُخشى على الدولة منه، كما جرى لابن تومرت 524هـ في بلاد المغرب"[85]. وقد نقل لنا البزار تلميذ ابن تيمية تفاصيل هذه التهمة، وذلك أن الناصر المملوكي سأل شيخ الإسلام حين اجتمع به قائلا: "إنني أخبرت أنك أطاعك الناس وإن في نفسك أخذ الملك" فما كان من أبي العباس ابن تيمية إلا أن قال بصوت عالي غير مكترث به: "أنا أفعل ذلك؟ والله إن ملكك وملك المغول لا يساوي عندي فلس"[86].

**خاتمة:**

نستنتج مما سبق أن السلاطين كانوا حذرين من علماء أهل الحديث وهذا يؤكد دورهم الفعال في الناحية السياسية وتأثيرهم على السلاطين. على أننا يجب ألا نبالغ في إبراز دور العلماء السياسي كثيرا، فالمجتمع المملوكي بحكم تكوينه مجتمع تحكمه طبقة المماليك بالقوة، وكثيرا ما كانوا

يفرضون آراءهم وتوجهاتهم على الشعب وعلى أهل الحديث، فيتعرض هؤلاء لكثير من ألوان التعسف والاضطهاد، وكثيرا ما تنكروا العلماء أهل الحديث وأنزلوا بهم الصغار والهوان في بعض الفترات، وتعرضوا لهم بالنقد، كما سبق الذكر.

كما ساعد على هذا الموقف أن بعض أرباب الأقلام والقضاة والفقهاء من الموالين للسلطان والحاقدين على أهل الحديث كانوا عونا للحكام ضدهم. وختاما تبيّن من دراسة أثر علماء الحديث في الحياة السياسية أنهم لم يكونوا بمعزل عن الأوضاع السائدة في زمانهم خلال القرن 8هـ/14م فقد فرضوا وجودهم بين الناس كطائفة لها وجود مؤثر وفعال في المجتمع. فكانوا بمثابة همزة وصل بين الحكام والمحكومين، وساهموا في تغيير الكثير من الأوضاع القائمة بألسنتهم وأقلامهم. وفي بعض الأحيان شاركوا في الحروب والأزمات الداخلية التي عصفت بدمشق كما حدث في غزو التتار للشام سنة 702هـ/1301م.

**الهوامش:**

**1.** شهاب الدين النويري: نهاية الأدب في فنون الأدب، تحقيق، محمد ضياء الدين الريس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،ط2 سنة 1990م، ج31، ص 427.

**2.** الناصر محمد بن قلاوون: يلقب بالناصر كان من المماليك الشجعان ويعتبر حكمه أزهى عصور المماليك توفي سنة 741هـ/1340م وخلفه أبناؤه. ابن حبيب: تذكرة البنية في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين الهيئة المصرية العامة للكتب1986 ج1 ص48. أبو الفداء إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، دار التقوى، القاهرة. سنة 1420هـ 1999م ج 14 ص52.

**3.** معركة شحقب سنة 702هـ: وقعت في أرض واسعة بدمشق بين التتار بقيادة غازان والمسلمين بقيادة الناصر محمد بن قلاوون، ابن كثير البداية والنهاية ج14 ص 25.

**4.** المقريزي أبي العباس، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق محمد زينهم، ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي القاهرة 1989م ج4، ص 344 .

**5.** قاسم عبدو قاسم، علي السيد علي، الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، الناشر عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة د ت ص 104.

**6.** الدولة البرجية: سميت بذلك لأن مماليكها كانوا يسكنون في برج قرب نهر النيل، وقد أسسها الظاهر برقوق سنة 480هـ/1382م واستمرت إلى أن سقطت على يد العثمانيين سنة 824هـ/1421م. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، 648-923هـ/1250-1517م، دار النفائس للطبع والنشر والتوزيع، بيروت سنة 1999م– 1420هـ ص 319.

**7.** الأمير برقوق الجركسي :كان برقوق مملوكا لدى الخواجة عثمان ثم ملكه الأشرف شعبان، فلما قتل ترقى حتى تولى تدبير الدولة وهو مؤسس الدولة الجركسية، 801هـ/1400م محمد على الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السبع دار الكتب العلمية، بيروت ط1 سنة 1418هـ1998م، ج1 ص153.

**8.** محمد بن عبد الهادي، طبقات علماء الحديث، تحقيق، إبراهيم الموييق، والحرم البوشي، مؤسسة الرسالة : بيروت، ط2 سنة 1417هـ – 1996 م، ج1، ص14.

**9.** الطباق: هو مكان لسكنى المماليك الذين اشتراهم السلطان، وربما سكنه المماليك بعد عتقهم، المقريزي الخطط ج3 ص346. السيد الباز العريني، المماليك، دار النهضة العربية، الطباعة والنشر، بيروت، ص25.

**10.** المقريزي: السلوك نج2،ص220،ابن كثير البداية و النهاية ج14 ص25.

**11.** ابن كثير البداية و النهاية ج14. ص 35.

**12.** القلقشندي: أحمد بن علي ت821هـ1419م، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق محمد حسين شمس الدين دار الكتب العلمية، بيروت سنة 1985م، ج4 . ص 36.

**13.** أكرم حسن العلبي، خطط دمشق دراسات تاريخية شاملة، دار الطباع دمشق،ط1، 1410هـ/1989م، ص40، أحمد مختار العبادي، من الحياة الاقتصادية في المدن الإسلامية دار الفكر العربي للنشر و التوزيع، مصرسنة 1999م ص300.

**14.** البيمارستانات: البيمارستان كلمة فارسية الأصل معناها دار المرضى، وكانت بمنزلة المستشفيات ومدارس الطب، وكان الخليفة الوليد بن عبد الملك أول من بني البيمارستان في دمشق. حسن زكي الصواف دمشق أقدم عاصمة في العالم، دار قتيبة للنشر و التوزيع بيروت ط1 1424هـ2004م ص335.

**15.** الحمامات: مفردها حمام، وهو مكان مبني يُتنظف فيه، انتشر بدمشق خلال القرن 8هـ 14م، إبراهيم مصطفى وآخرون المعجم الوسيط تحقيق مجمع اللغة العربية دار الدعوة د .ت، ج1ص426.

**16.** أحمد المختار العبادي المرجع السابق، ص307.

**17.** السيوطي جمال الدين حسن المحاضرة في تاريخ مصر و القاهرة،تحقيق أبو الفضل إبراهيم دار إحياء الكتب العلمية القاهرة، ط1 سنة 1387هـ 1967م ج2ص199 . أحمد مختار العبادي الحياة الاقتصادية. ص 310 .

**18.** السبكي أبي نصر عبد الوهاب ابن علي ابن عبد الكافي معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد على النجار وآخرون مكتبة الخانجي القاهرة ط2 سنة 1410هـ/1993م، ص 72.

**19.** السيوطي عبد الرحمن، حسن المحاضرة، ص ج2 ص299.

**20.** ابن كثير البداية و النهاية ج14ص227.

**21.** الجهاد لغة: بذل واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل. شرعا: بذل الجهد من المسلمين في قتال الكفار و البغاة و المرتدين و نحوهم، بن قدامى المقدسي، المغني تحقيق عبد الله بن عبد المحسن تركي، عبد الفتاح محمد الحلو دار العلم للكتاب والطباعة والنشر الرياض سنة 1428هـ2007م ج14ص7.

**22.** سورة التوبة، الآية 41

**23.** سورة التوبة الآية 38

**24.** خرجه النسائي أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، سنن النسائي، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1411هـ-1991 مج3 ص153

**25.** أخرجه النسائي نفس المصدر، ج3ص220

**26.** تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية شيخ الإسلام ت728هـ1328م وهو أحد علماء الحديث الذين نادوا إلى الرجوع إلى الكتاب و السنة، ونبذ التعصب وكان له جهاد ضد التتار، ابن كثير المصدر السابق ج 16 ص 120

**27.** التتار تمتد أراضي دولتهم في الشمال في السهول الفسيحة والواقعة جنوب روسيا وأقصى جنوب آسيا وامتد سلطانها على سيبيريا وأجزاء الجنوبية من روسيا، محمد سهيل طقوش المرجع السابق ص45

**28.** ابن كثير البداية و النهاية ج14ص9

**29.** غازان : هو ملك التتار اسمه محمد ابن أراغون ابن هولاكو ابن تولي ابن جنكيز خان تولى ملكك التتار سنة 693هـ فأسلم سنة 694هـ، وتسمى محمود ت 703هـ البداية والنهاية، ج13، ص360.

**30.** المقريزي السلوك ج2ص 428

**31.** البداية والنهاية ج14ص10

**32.** النبك: قرية بين حمص ودمشق، ياقوت الحموي عبد الله شهاب الدين أبي عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت ج1ص205

**33.** الصفدي الوافي بالوفيات ج2ص123 .

**34.** البداية و النهاية ج14ص11

**35.** جبل كسروان : يقع حاليا بالقرب من بيروت الزركلي، الأعلام، دار الملايين بيروت ط5، سنة 1980م ج5ص233.

**36.** ابن كثير البداية و النهاية ج14،ص13

**37.** الصفدي، الوافي بالوفيات ج2 ص448

**38.** ابن كثير و النهاية ج14ص14 .

**39.** المصدر نفسه، ج14ص15.

**40.** تيمورلنك:أحدملوك التتار غزى دمشق واستباحها أياما وأحرق العديد من دور العلم بها، ابن حجر العسقلاني أنباء الغمر بأنباء العمر في التاريخ تحقيق، عبد المعيد خان، ط2 دار الكتب العلمية بيروت، 1406هـ1986م ج. 1ص253

**41.** ابن حجر، إنباء الغمر المصدر السابق ج 1ص 256

**42.** إبراهيم بن محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج الصالحي الحنبلي تقي الدين بن العلامة شمس الدين 749هـ803هـ1348م 1404م كان بارعا عالما حفظ الكتب واشتغل حتى مهر وقد تولى قضاء الحنابلة، شذرات الذهب المصدر السابق ج7 ص48

**43.** إنباء الغمر المصدر السابق ج1ص255

**44.** المقريزي السلوك ج3 ص383

**45.** البدر الطالع المصدر السابق ج 3ص6

**46.** المقريزي . السلوك ج2 ص56

**47.** أحمد بن محمد بن إياس، بدائع الزهور في و وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية القاهرة سنة 198 ج2ص93

**48.** أنباء الغمر ج2 ص 253.

**49.** الشيخ أمين الدين يحيى الأقصراني شيخ المدرسة الأشرفية، عبد القادر النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس ج2 ص46

**50.** بدائع الزهور المصدر السابق ج2 ص:97

**51.** مؤرخ عاش في القرن 8ه تتلمذ على يد ابن تيمية الوافي ص15

**52.** قطلوبك: 716هـ/1316م وهي الذي توجه للناصر محمد في العسكر المجهز من الأفرام لمحاربة الناصر بالكرك فمال مع الناصر، و أخذه من الكرك إلى الشام، وقام له بشعائر المملكة فلما قدم مصر أعطاه نيابة صفر في جمادى الأولى 711

هـ/1311م، و حمل منها إلى الكرك فسجن فيها إلى أن قتل في سنة 716 هـ/1316م،البداية و النهاية المصدر السابق ج2ص120

**53.** الوافي بالوفيات ج2 ص475،

**54.** دركواناتك : لعلها الحيل كما ذكرها، الوافي الوفيات ج2 ص29

**55.** الصفدي الوافي بالوفيات ج2 ص476 .

**56.** النجوم الزاهرة ج11 ص326.

**57.** بيبرس الملك المظفر ركن الدين البرجي الجاشنكير المنصوري، و كان يعرف بالعثماني، تسلطن سنة 708هـ1308م قتل الجاشنكير سنة 709هـ/ 1309م الصفدي المصدر السابق ص147.

**58.** علي بن محمد العمراني و محمد عزيز الجامع لسيرة شيخ الإسلام بن تيمية خلال سبعة قرون دار علام الفؤاد للنشر و التوزيع سنة 1410هـ 1990م ص38.

**59.** البداية و النهاية ج14 ص34

**60.** ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ج12 ص238

**61.** ابن خلدون العبر في ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبرج4ص220.

**62.** إبراهيم بن محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج الصالحي الحنبلي كان بارعا عالما حفظ الكتب واشتغل حتى مهر وقد تولى قضاء الحنابلة، توفي سنة803هـ ابن حجر الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة تح، محمد سيد جار الحق، دار الكتب الحديثة ط2، ج3ص120

**63.** شمس الدين محمد بن محمد النابلسي الحنبلي الإمام العلامة ولي قضاة الحنابلة بدمشق عدة مرات كما درس بها بعدة مدارس و اتصف بالعلم والذكاء و خفة الظل توفي بمنزله بالصالحية سنة 805ه ابن العماد شذرات الذهب ج7 ص52

**64.** عبد الرحمن بن خلدون قاضي قضاة المالكية بمصر ولد بمدينة تونس في رمضان 732هـ1331م و ذهب إلى مصر سنة784هـ /1383م رافع الجيش المملوكي إلى دمشق وكان ضمن أعضاء الوفد الصلح أعجب به تيمور لنك، ورغب في أن يضم إلى حاشيته و لكنه نجح في الهروب منه توفي بالقاهرة و دفن بها بمقابر الصوفية خارج باب النصر ت 800هـ شذرات الذهب ج7 ص76

**65.** الطقزات: الطقز بالتركية معناه الرقم تسعة و كان من عادة التتار إن اخذوا مدينة صلحا أن يخرج أهلها من كل نوع من أنواع المأكولات و المشروبات و الدواب و الملابس و التحف التسعة، المقريزي السلوك ج4ص131.

**66.** المقريزي السلوك ج4 ص132

**67.** ابن خلدون :تعريف بابن خلدون و رحلته شرقا و غربا ص370

**68.** إنباء الغمر بإنباء الغمر ج1 ص255

**69.** ابن إياس بدائع الزهور ج1 ص332

**70.** ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ج12 ص25،

**71.** ابن اياس بدائع الزهور ج2ص40

**72.** محمد سهيل طقوش المرجع السابق ص358.

**73.** ابن كثير المصدر السابق ص101.

**74.** سراج الدين الهندي ولد سنة 704هـ1304م كان قاضي الحنفية في مصر مات سنة 773هـ/1374م أنباء الغمر ج1 ص29، البدر الطالع المصدر السابق ج1 ص482.

**75.** آلجاي اليوسفي قتل سنة 775هـ/1374م، بعد أن تنافر مع السلطان الأشرف بسبب منازعات وقعت بينهما وكان صاحب الحجاب بدمشق ، المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ج2 ص230.

**76.** ابن حجر .أنباء الغمر ج1 ص28:29.

**77.** العز بن عبد السلام: ولد سنة 577هـ، عز الدين محمد بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي ثم الدمشقي ثم المصري الشافعي، زاهد ورع تولى قضاء مصر، لقب بسلطان العلماء توفي سنة 660هـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن عماد ج7 ص523 الذهبي سير أعلام النبلاء ج 17 ص32.

**78.** الذهبي سير أعلام النبلاء ج 17 ص32.

**79.** الظاهر بيبرس البندقداري: هو أحد مماليك الصالح أيوب الذين اغتصبوا الحكم عن سلالته، وكانت له صولات وجولات مع التتار وكان من الأمراء المسلمين الذين ردواهولاكو في معركة عين جالوت توفي سنة 658هـ البداية و النهاية ج15 ص357.

**80.** شذرات الذهب ج7 ص524.

**81.** عبد العظيم عبد السلام شرف الدين ابن القيم الجوزية وجهوده وآراؤه الفقهية و العقائد والتصوف،، دار القلم، الكويت ط3 1984م 1405هـ ص64.

**82.** ابن كثير البداية و النهاية ج14ص36.

**83.** عمر البزار عمر بن البراز . الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية ص104.

**84.** ابن كثير البداية و النهاية ج14ص36.

**85.** ابن تيمية، مجموعة فتاوى، دار مكتبة المعارف الرباط، دت ج2، ص52

**86.** عمر البزار المصدر السابق ص94